٢ ـ شـــعر ناجى

للأســـتاذ دريني خشبة

ومزة ناجى الثانية هى قدرته على التصـوير . . . وهو يصور فى يُسر ورخاء وخصب ؛ وهو يصور الصورة الـكاملة التامة بالـكلمة الواحدة أحياناً يضعها فى مكانها من البيت فتحار إذ ترى أنها لا تصلح إلا فيه ... وقد يصور الصورة الرائعة بالـكلمتين أو بالشطرة أو بالبيت الـكامل أو بالبيتين أو بالمقطوعة أو بالمنظومة كلها ، فيضع بين يديك ألواناً جيدة حسنة المزج ، خالية من الصنعة والتـكلف . ويحافظ ناجى على طبيعة ألوانه هذه ، ويحافظ على ألا يجعلها صارخة مبتذلة ، وقد يؤثر اللمس الخفيف على الخطوط القاطعة القوية ، وكثيراً ما يكتفى بالرمز ، بل كثيراً ما يصور بالوهم ، فيجعلك تتوهم مثله لتخلق معه الصورة التى يريد

ومما يزيد فى بهاء صور ناجى جودة الأداء ، أقصد جودة انتقاء الألفاظ التى تحمل الصورة ، وحسن سبكها ، فى غير مشقة ولا عسر ... ومما يجمل الالتفات إليه أن جودة الأداء وحسن السبك لم يبلغا أوجهما فى الشعر العربى إلا بعد ابتداع الموشحات ، ومما نحمد الله عليه أن شعراءنا الشباب قد استغلوا نظام الموشحة استغلالاً حسناً ساعدهم فى الثورة على القصيدة المطردة القافية فافتنوا فى معانيهم وأبدعوا ... والظريف من ناجى أنه يطبق ذلك فى صمت تطبيقاً عملياً ... فمنذ أخذنا نقرأ ناجى لم نره قط يطيل فى قصائده ، بل كان يؤثر لها البساطة والبحر الساذج القصير دائماً ؛ فإذا كانت منظومته من طراز الموشحات رأيناه يطيل إطالة عجيبة ، ورأينا مقطوعاته تحمل من الصور والبراعات ما يفتن به القلوب ويخلب الألباب

ولعل من أجل صور ناجى تلك التى حمل إلينا فيها قلبه ، والتى قدمنا منها النماذج الـكثيرة فى الـكلمة السابقة ... فقلبه : الشهيد المتوارى فى الضلوع ... صورة رائعة فيها سحر وفيها فتنة وفيها حب وأنين وألم ... وكلمة الشهيد وحدها حين تصف القلب تحمل إلى أذهان المحبين صور تلك الساعات الحلوة التى التذوا فيها آلام الصبر والتشوف والحنين والانتظار وخُلف المواعيد ، وهى آلام إذا أحست الجوارح الإنسانية منها شيئاً ، أحس منها القلب الإنسانى كل شىء ... فما أبدع كلمة الشهيد فى تصوير القلب يدمى ويألم ويتوجع

فهذه صورة رائعة من صور ناجى فى كلمة واحدة !

ويقول ناجى :

رفرف القلب بجنبى كالذبيح وأنا أهتف : يا قلب اتئد !

رفرف القلب ! كلمتان جميلتان تصـــوران القلب فى صـورة الطائر الذى يحرك جناحيه حول الشىء كما يقول القاموس ... ورب قائل يعترض بأن هذه صورة قديمة مأخوذة من قول من قال مثلاً : كما انتفض العصفور بلله القطر ... وهو اعتراض لا يكاد يقف على قدميه ، فرفرفة القلب رمز جميل وتلميح ، وانتفاض العصفور بلله القطر إفاضة وتصريح ، ولـكل من الصورتين بعد ذلك بهاؤها وروعتها ، فإذا أخذنا الصورة الثانية التى يرفرف القلب فيها بجنب الشاعر كالذبيح ، رأينا لوحة شاملة فيها كثير من التفاصيل الفنية ... ثم تتغير هذه اللوحة حينما نقرأ البيت كاملاً ... لأننا نرى الشاعر ، أو روح الشاعر ، تقف فى جانب من الصورة الرائعة وهى تخاطب القلب هذا الخطاب الرقيق ، وتهتف به مشفقة عاتبة : يا قلب اتئد ! فرفرف القلب صورة ، ورفرف القلب كالذبيح صورة ثانية ، والبيت كله صورة ثالثة . . . وهنا قوة ناجى المصور الفنان الذى يجيد مزج ألوانه ...

وانظر إلى الصور الـكثيرة المتتالية فى المقطوعة التالية :

هل رأى الحب سكارى مثلنا ؟ كم بنينا من خيال حولنا !

ومشينا فى طـريق مقمر نثب الفرحة فيـه قبلنا !

وتطلعنا إلى أنجمـه فتهاوين وأصبحن لنـا !
وضحكنا ضحك طفلين معاً وعدونا ... فسبقنا ظلنا !

فيا للفرحة التي تثب في هذا الطريق المقمر قبل المحبين ؟ ويا لهذه الأنجم التي يتطلع إليها المحبون فترثي لهم وتترفق بهم فتهاوى وتصبح لهم ! ويا للمحبين حين يسعدون فيضحكون ويعدون ... ويسبقون ظلالهم ! أما كيف يسبق الإنسان ظله فصورة روحية قد لا يفهمها إلا من صحب دانتي الليجيري في مطهره ، وفرجيل يقوده وسط أشباح وأرواح !

ويودع حبيبه فيقول :

حان حرماني فدعني يا حبيبي هذه الجنة ليست من نصيبي
آه من دار نعيم كلما جئتها أجتاز جسراً من لهيب
وأنا إلفك في ظل الصبا والشباب الغض والعمر القشيب
أنزل الربوة ضيفاً عابراً ثم أمضي عنك كالطير الغريب !

وفي أول هذا الوداع يقول :

حان حرماني ونادى النذير ما الذي أعددت لي قبل المسير
زمني ضاع وما أنصفتني زادي الأول كالزاد الأخير
ري عمري من أكاذيب المنى وطعامي من عفاف وضمير
وعلى كفك قلب ودم وعلى بابك قيد وأسير !

والصورتان اللتان يحملهما البيت الأخير من أخلد الصور في الشعر العربي !

وإليك هذه الصورة :

يا مناجاتي وسري وخيالي وابتداعي
ومتاعا لعيوني وتميمي وسماعي

تبعث السلوى وتنسى الموت مهتوك القناع :
دمعة الحزن التي تسكبها فوق ذراعي !!

فما أبدع هذا التصوير الرمزي في البيت الأخير أيضاً

ويصور الحنين فيقول :

أبني الهدوء ولا هدوء وفي صدري عباب غير مأمون
يهتاج إن لج الحنين به ويئن فيه أنين مطعون
ويظل يضرب في أضالعه وكأنها قضبان مسجون !

ويقول فيه أيضاً :

ريح الحنين وما يجرعني من مُرّه ويبيت يسقيني
ربيته طفلاً بذلت له ماشاء من خفض ومن لين
فاليوم لما اشتد ساعده وربا كنوار البساتين
لم يرض غير شبيبتي ودمي زاداً ، يعيش به ويفنيني !
كم ليلة ليلاء لازمني لا يرتضي خلاً له دوني
ألفى له همساً يخاطبني وأرى له ظلاً يماشيني

ويستطيع القارىء أن يعد صوراً شتى في هذه الأبيات النسمة وهاك صورتين عجيبتين صوّر بهما ناجي حبيبته : أما الأولى فهذه :

وأنت مثل النجم في المتأى وفي السنا الخاطف كالماس
يرنو له الناس ويبغونه وما يبالي النجم بالناس

وهي صورة مركبة في البيت الأول ، أما الثانية فهي :

وأنت كأس الحسن لكننا مثل حباب حام بالكاس
طفا وقد قبّل أنوارها ورف مثل الطائر الحاسي
وجف أو ذاب على نورها كما يذوب الطلّ بالآس

وهذه صورة مركبة أيضاً ، لأنها تتألف من صور خلابة شتى ، تذكرنا بصور ابن المعتز وذي الرمة والبحتري ... ولست أبالي أن أذكر أن صور ناجي هذه تفوق صور هؤلاء بالرقة واللمس الدقيق !

وانظر كيف يحيي لنا ناجي سنّة الأولين في الوقوف بالأطلال :

آه مما صنع الدهر بنا أو هذا الطلل الماثل أنت ؟!
والخيال المطرق الرأس أنا ؟! شد ما بتنا على الضنك وبت !

أين ناديك وأين السمرُ ! أين أهلوكِ بساطاً وندامى ؟
كلما أرسلت عيني تنظر وثب الدمع إلى عيني وغاما !

موطن الحسن ثوى فيه السأمْ وسرت أنفاسه في جوّهِ

وأناخ الليل فيه وجثم وجرت أشباحه فى بهوه

ولا بأس من نقل الصور التالية من تلك المنظومة الخالدة من شعر ناجى :

والبلى ! أبصرته رأى العيانْ ويداه تنسجان العنكبوت
صِحْ: يا ويحك تبدو فى مكانْ كل شىء فيه حى لا يموت ؟

كل شىء من سرور وحَزَنْ والليالى من بهيج وشجى
وأنا أسمع أقدام الزمن وخُطى الوحدة فوق الدرج

فمن من الشعراء القدامى أو الشعراء المحدثين وقف على طلل حبه فبكاه هذا البكاء واستطاع أن يصوره هذا التصوير ؟ أنظر إلى هذا الخيال المطرق كلما أرسل عينيه فى دمنة حبه وثب إليهما الدمع . . . وغاما ! . . . وانظر إلى الليل كيف يُتيخ فى هذا الطلل ويجثم ، وكيف تجرى أشباحه فى عرصاته وتهوّم ! وانظر إلى البلى كيف تنسج يداه العنكبوت فى هذا الرسم الدارس ، والمحب الباكى واقف يسمع إلى أقدام الزمن تدب فى أركان هذا المكان الذى كان نادى حبه وجنة قلبه ، وإلى خطى الوحدة الموحشة نازلة صاعدة فوق الدرج . . .

وإليك هذه الصورة من منظومة فى حبيبه المريض الذاوى :

ذهب الصبا الغالى ، وزالت دوحة
مدت لنا ظل الوفاء ظليلا

أيام يخذلنى أمامك منطقى فإذا سكت ، فكل شىء قيلا !
ويثور بى حبى فإن لفظ جرى بفمى ، تمثر بالشفاه خجولا !

فهذه صورة عادية رددها الشعراء فى شعرهم طويلا ، إلا أن موضع السحر فيها كامن فى عجز البيت الثانى : فإذا سكت فكل شىء قيلا ! كما يكمن الكثير من هذا السحر فى ذاك اللفظ الذى إن جرى بفم المحب تمثر بالشفاه خجولاً !

ومن تصوير ناجى بالوهم الذى رأينا منه صورة قوية فى وقوفه بطلل حبيبه ، الصورة التالية :

يا طالما أدْنتك أوها م كواذب كالحلم
فلمحت صبحك فى المسوا د وخلت روحك فى النَّسَمْ

وشفيت وهمي من رضا ك ورُبَّ ذى بأس وهِمْ
ورويت أذنى من حديثك وهو معبود النَّغم
وحرقت قلبى من سنا ك على جمال يضطرمْ
كفراشةٍ حامت عليك وأى قلب لم يحم !
لك حُسْنُ نوار الخميلة طُلّ صبحاً فابتسم
لك نضرة الفجر الجميل على الذوائب والقمم
لك طلعة البدر المرجّى بعد مستعصى السقم
وسؤال دمعك حين يسألنى ، ومن لى بالكلم
لم يا أنيس خواطرى غفتِ العيون ونحن لمْ !؟

أكاد أنقل الديوان كله ، لأنه يفيض بتلك الصور ، بتلك الغرر !...

(يتبع) دريني خشبة

الأستاذ أبو خلدون ساطع الحصرى

يقدم

إلى المربين والمعلمين والوالدين والمفكرين كتابه الجديد

آراء وأحاديث

في

التربية والتعليم

وهو خلاصة مطالعات ، ونتيجة مشاهدات ، وزبدة تجارب ، فى ترتيب منطق وأسلوب سهل وصورة مشوقة . والقسم الثالث منه خاص بنظام التعليم فى مصر ونقده وبحث مشكلة التعليم الإلزامى فيه

يباع فى إدارة مجلة الرسالة وفى سائر المكاتب الشهيرة

وثمنه ثلاثون قرشاً عدا أجرة البريد